الاصقاع القطبية الجنوبية

ذكرنا غير مرة ان السفينة الانكليزية المسماة دسكفري راي الاكتشاف قصدت القطب الجنوبي لاكتشاف ما حولهُ فجمد البحر حولها ومنعها عن السير ولقي من فيها اشد المشاق قبل ان بلغتهم سفينة الصباح وانقذتهم . وقد كتب احد ضباطها وهو العالم شكلتون مقالة في مجلة بيرصن وصف فيها تلك الاصقاع وما لقوهُ فيها فاقتطفنا منها ما يلي لما فيهِ من الفكاهة والفائدة قال :

ان الاصقاع الجنوبية ابرد من الشمالية لان المياه الحارَّة تجري من خليج المكسيك شمالاً وتلطف بردها فلا يبلغ الحد الذي يبلغهُ في الجنوبية . ولكن في الاصقاع الجنوبية من الغرائب ما تتعلقهُ بالنفوس فترى الذين ذهبوا اليها مرةً يودون الذهاب مرةً اخرى رغماً عما يقاسونهُ من شدة البرد وقلة الطعام والبعد عن الاصدقاء والخلان

وقد بُنيت سفينتنا لكي تحتمل ضغط الجليد على جانبيها ولا تنكسر ولكي لا يتطرَّق البرد الشديد الى من فيها ولذلك لم نخشَ الوصول الى البحر المتجمد بل فرضنا جائزة لمن يشاهد الجمد اولاً وما قال واحد انهُ شاهدهُ في ظهر البحر هرعنا كلنا الى ظهر السفينة لنشاهد ما شاهدهُ ولم يكن سوى كسر صغيرة طافية على وجه الماء ولكن لم يمضِ ذلك للنهار حتى نخرت السفينة في الجليد ولم نعد نرى حولنا الاَّ بساطاً ابيض يرصعهُ حيوان الفقمة وطائر البنغوين اما الحيوان فلم يعبأ بنا واما الطائر فكان يمشي الينا الطيزلى وهو يصرخ مستغرباً اعتدائنا على حماهُ كأنهُ شيوخ لبسوا رداء اسود تحتهُ صدار ابيض

وكان الجليد رخواً غير متماسك الاجزاء فنخرت سفينتنا فيهِ خمسة ايام متوالية وحينئذٍ وصلنا الى بر القطب الجنوبي وهو جبال شاهقة يغطيها الثلج تعلو عن البحر عشرة آلاف الى خمسة عشر الف قدم تناطح السحاب وتعلو فوقهُ وتصب في البحر انهاراً من الجليد لتكسر وتجري فيهِ كقطع الغمام وكنا نتشوَّف الى النزول على هذا البر لمشاهدة ما فيهِ من انواع النبات والحيوان فلم نجد فيهِ سوى قليل من الطحالب والاشنان وانواعاً قليلة من الطيور وحيوان الفقمة المشار اليهِ آنفاً واما البلاد القطبية الشمالية التي من هذا العرض فانهُ يوجد فيها ثمانية عشر نوعاً من النباتات المزهرة وكثير من انواع الحيوان كالفقمة والدب والارنب والثعلب والسنجاب والقطا القطبي

وتكبر الفقمة هنا حتى يبلغ وزنها الف رطل ومنها كان اكثر طعامنا وهي كثيرة الدهن

ودهنها زنخ تعافهُ النفس ولكن الجوع كافر فكنا اذا فرغ طعامنا ونحن في المزالق نرحب بكل قطعة من هذا الدهن وننسى خبث طعمهِ

وتزحف القشمة على الجليد زحفاً بطيئاً ولا تخشى من الانسان لانها لم تره قبلاً ولا عرفت انهُ افتك انواع الحيوان . اما طائر البنغوين فكان يثور في وجه من يدنو منهُ لاننا شاهدناهُ في زمن التفريخ وتدعوهُ سليقتهُ حينئذٍ الى الدفاع عن فراخهِ وهو بني ادحيهُ من حجارة صغيرة يلتقطها من الشاطئ وقد لا يبني ادحيًا بل يضع بيضهُ على الصخر ويحضنهُ كذلك ويزق فراخهُ هكذا : ينزل الى البحر ويصطاد منهُ بعض السراطين ونحوها ويبتلعها ثم يفتح فاهُ والفراخ تدخل رؤوسها في حلقهِ وتاكل ما تجدهُ فيهِ . ويسطو عليهِ الطائر البحري المعروف بالزعاق ويختلس فراخهُ ولذلك يعيش بعضهُ مع بعض اسرابًا لكي يتعاون ويدافع عنها

هذا ما كنا نراهُ في فصل الصيف حين وصلنا الى هناك والصيف ستة اسابيع لا غير من منتصف دسمبر الى آخر يناير فقضيناهُ في تجوال حول البر . ولما وصلنا الى جبل اربوس الذي اكتشفهُ السر جس روس منذ ستين سنة وجدنا الدخان فوق قنتهِ لانهُ بركان مشتعل تعلو قنتهُ عن البحر ١٢٥٠٠ قدم ولكننا لم نرَ النار تخرج منهُ الاَّ مرةً واحدة وكنا نرقبهُ كل يوم لنعلم جهة الريح من اتجاه دخانهِ . وعزمنا ان نشتي في سفحهِ ولو كنا نعلم ان نارهُ لا تخفف صبارة البرد

وكنا في الصيف لابسين ثيابنا العادية ثم اشتدَّ البرد رويدًا رويدًا وبلغ درجة الصفر بميزان فارنهيت وانحطَّ الى ما تحتهُ فبسنا احذية من الفرو وجعل الجليد يزداد سمكًا في اوائل فبراير ولم تعد سفينتنا تستطيع السير فيهِ لانهُ متماسك صلب لا كجليد الصيف المتخلخل فألقينا مرساتها ونحن نعلم اننا قادمون على ليل طويل يدوم مئة واثنين وعشرين يومًا فأعددنا كل ما يمكننا اعدادهُ ليسهل علينا احتمال ذلك الليل الطويل

ولما تراكم الجليد حول السفينة ومنعها من الحركة ربطنا حبالاً بها ومددناها في كل جهة حتى نهتدي بها اليها لانهُ اذا عصفت العواصف في ذلك الليل البهيم لا يعود الانسان يرى شيئًا فيضل السبيل

اتفق ان اثنين من رجالنا اضاعا الجبل مرة ولم يكونا قد ابعدا عنهُ الاَّ قليلاً فبقيا ساعتين يفتشان عنهُ قبل ان اهتديا اليهِ ووصلا الينا وقد هرأ البرد وجنبيهما اعني بذلك ان البرد يقلص الاوعية الشعرية ويطرد الدم منها فيبيض اللحم ويموت ما لم يبادر المرء الى فركهِ لارجاع الدم اليهِ

والليل القطبي منقطع النظير لا يعنهُ الاَّ من مرَّ عليهِ . افرض انك في قفر قاحل لا نبات فيهِ ولا حيوان ولا علامة من علامات الحياة وذلك القفر جليد بحت وانت مقيم فيهِ مع رفاقك منقطعين عن الناس تمام الانقطاع لا يصل اليكم منهم شيءٌ ولا يصل شيءٌ اليهم منكم وقضي عليك ان تقيم هناك شهرًا بعد شهر بعد آخر اربعة اشهر متوالية في ظلام دامس والريح تهب باردة حتى اذا كشفت وجهك او يدك هرأها البرد ولا شيءٌ يسليك الاَّ حديث اصحابك. اذا تصورتَ ذلك امكنك ان تتصوَّر حال من يشتي في الاصقاع القطبية ويمرُّ عليهِ ليلها البهيم . اما نحن فلم نضجر لاننا كنا على تمام الصفاء وكنا قد اعددنا اشياء كثيرة لتسليتنا وحالما ابتدأ فصل الشتاء لبسنا ثياب الفرو وثوبًا صفيقًا فوقها ممَّا يمنع دخول الهواء فصار يسهل علينا الخروج ولو في اشد العواصف

وهبطت درجة الحرارة رويدًا رويدًا حتى صارت ٤٠ تحت الصفر بميزان فارنهيت ولكن شعور الانسان واحد سواءٌ كان البرد على ٣٠ تحت الصفر او على ٦٠ تحت الصفر لا يرى الفرق بين الدرجتين الاَّ اذا نظر الى ميزان الحرارة . وكنت اشعر احيانًا بلسع شيء وجهي كلسع الزنابير فاعلم ان البرد هرأهُ فاجعل افركهُ بيدي الى ان اعيد الحرارة والدورة الدموية اليهِ ولم نكن نستطيع ان نكشف ايدينا اكثر من دقيقتين او ثلاث اما وجوهنا فكنا نلتزم ان نبقيها مكشوفة حول افواهنا والاَّ اجتمع البخار منها على اجفاننا وجلد هناك . وقد تهب الريح في وجه المرء فيجد نفسهُ على وجههِ ولا بدَّ لهُ حينئذٍ من ان يدور من وجه الريح وينزع كفهُ من يدهِ وينفرك وجههُ شديدًا والاَّ هرأهُ البرد او الصق اجفانهُ واعماهُ . واضطررنا ان نحلق لحانا وشواربنا لان بخار النفس كان يجتمع عليها ويجلد ولم نكن نستطيع ان نلمس شيئًا معدنيًّا لان يردها كان يهرأ اليد . واتفق ان كلبًا راى اناء من الصفيح ما يوضع فيهِ الطعام فمدَّ لسانهُ ولحسهُ فلصق لسانهُ بهِ

ولما ابتدأ فصل الشتاء خرج البعض منا في المزالق فلقوا عاصفة شديدة كانت تعصف الثلج في وجوههم وحاولوا الوصول الى المكة يستذرون بها فلم يستطيعوا وشعروا ان البرد اخذ يهرأ وجوههم وكان معهم خيمتان فنصبوهما حالاً ولجأوا اليهما ولو تأخروا خمس دقائق لقضي عليهم لانهُ لا يبقى فيهم قوة لنصب الخيمة

وكانت هذه العواصف من اشد البلايا علينا لاسيما وانها كانت تثور من غير انذار حتى لا نكاد نجد الوقت الكافي لنصب الخيام والالتجاء اليها وكان العاصف يدوم احيانًا يومين او ثلاثة فلا نتجاسر على الخروج الاَّ لاخذ الارصاد الجوية

وكان لا بدَّ لنا من الخروج في المزالق لمعرفة تلك الاصقاع وما فيها وهو الغرض الذي ذهبنا لاجلهِ فكنا نخرج بها والكلاب والخيام وهذه الخيام صغيرة تسع الخمسة منها ثلاثة رجال وكانوا يشعلونهُ ويسخنون عليهِ طعامهم وقد يضطرون ان يقيموا فيها يومين او ثلاثة او اكثر لا يستطيعون الخروج منها ثم اذا ارادوا الخروج وجدوا الثلج قد طمرها

والكلاب التي كانت معنا من كلاب سيبيريا المعتادة البرد وكانت ثلاثة وعشرين فقط لاننا لم نحسب اننا ننزل على البر وحدنا لو اخذنا معنا ستين او سبعين كلباً فكنَّا اذًا وصلنا الى القطب الجنوبي على ما اظن. وولد عندنا تسعة اجراء في فصل الشتاء ولكنها لم تقوَ مثل امهاتها

واصطدنا كثيرًا من طائر البنغوين الملكي وهو نادر ووجدنا بيضة من بيضهِ وهي الوحيدة وهذا الطائر لا يبني عشًّا ولكن للانثى شيء كالكيس من الريش حول رجليها فتضع بيضها فيهِ وتربي هناك فراخها فلا يهرأها البرد واذا سقط فرخ من امهِ اسرعت الطيور كلها اليهِ لتنتشلهُ فتمزقهُ اربًا في الغالب من حنانها عليهِ

ولما القى الشتاء عصاهُ لم نعد نجسر ان نبعد عن السفينة لكننا كنا نخرج منها احيانًا الى اكمة قريبة منها ونصعد عليها وننزل ترويضًا لاجسامنا او نقطع الثلج ونأتي بهِ الى السفينة لنذوبهُ ماء ونفطر الساعة الثامنة صباحًا ثم نتعاطى اعمالنا المختلفة بعضنا يجرف الثلج عن السفينة وبعضنا يرفأ الغطاء الذي يغطيها او يصبّر جلود الطيور والفقاقم او يسبر غور البحر او يصطاد الحيوانات البحرية. وقد اصطاد العالم البيولوجي الذي كان معنا خمس مئة صنف من الحيوانات البحرية الجديدة من انواع السراطين وعناكب البحر والمحار مما يعيش في البحر او يسبح فيهِ وكان اذا اراد ان ينظف عظام فقمة من لحمها يضعها في شبكة حيث يصل اليها ماء البحر تحت الجليد فتأتي السراطين ونحوها من الحشرات البحرية وتأكل اللحم عن العظم وتنظفهُ في يومين

وكان معنا اجراء كوخ كبير اقمناهُ على الشاطئ حتى نقيم فيهِ اذا انكسرت السفينة فجعلناهُ ملعبًا كنا نمثل فيهِ بعض الالعاب الهزلية وانشأنا جريدة شهرية سميناها تيمس القطب الجنوبي كنا نشترك في كتابتها وزرعنا قليلاً من الرشاد والجرجير في غرفة المرضى فنبتا واطعمناها لفريق منا كان قد ذهب على المزالق وعاد الينا. وكان في هذه الغرفة موقدان لتدفئتها وكنا نقيم فيها غالبًا لان حرارتها كانت دائمًا على الدرجة ٥٥ بميزان فارنهيت ولم ننقطع عن رصد الحوادث الجوية كل ساعتين لا نهارًا ولا ليلاً

ستأتي البقية